

الزَّمخَشَرِيُّ وَالشَّعْبِيُّ

للدكتورة بهيجة باقر الحسني

كلية الشريعة – جامعة بغداد

حياته: (١)

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشي الخوارزمي
الملقب بجار الله، قال الزمخشي: (٢)

فجاورت ربي وهو خير مجاور لدى بيته البيت المحرم عاكفا
أقمت بإذن الله خمسا كواملا وصادفت سبعا بالمعرف واقفا

(١) ترجمته في أزهار الرياض ٢٨٢/٣، وإرشاد اللبيب ١٤٧/٧، وإنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٦٥/٣، الأعلام ٥٥/٨، وبغية الوعاة: ٣٨٩/٣٨٨، وتاريخ ابن الأثير ٨/٩، وتاريخ الإسلام للذهبي (وفيات ٥٣٨)، وتاريخ أبي الفداء ١٦/٣، وتاريخ ابن كثير ٢١٩/١٢، وجريدة العراق الأحد ١٨ كانون الثاني ١٩٨٧، وروضات الجنات ٦٨٤/٦٨١، وشذرات الذهب ١٨/٤ وطبقات ابن قاضي شهبة ٢٤١/٢، وطبقات المفسرين للسيوطي: ٤١، والعقد الثمين ٢٩/٢، وكشف الظنون ٧٤، ١١٧، ١٢١، ١٦٤، ١٨٥، ٦١٦، ٧٨٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ١٠٠٩، ١٠٥٦، ١٠٨٢، ١٠٨٥، ١٢١٧، ١٣٢٦، ١٣٩٨، ١٤٢٧، ١٤٧٥، ١٤٧٨، ١٥٨٤، ١٦٧٤، ١٧٣٤، ١٧٧٤، ١٧٩١، ١٧٩٨، ١٨٧٧، ١٨٩٠، ١٩٥٥، ١٩٧٨، واللباب في تهذيب الأنساب ٥٠٦/٢. ومرآة الجنان ٢٦٩/٣، ومعجم البلدان ٣٩٩/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥، ونزهة الألباء ٤٦٩، ومفتاح السعادة ٤٣١/١، ومجلة المجمع العلمي العربي ١٣٥/٥، وفیات الأعيان تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ٢٥٤/٤ ومقدمة كتاب المحاجة بالمسائل النحوية.

The Encyclopedia of Islam, 4. 1205 Geschichte der Arabixhen Litteretur, 1.289. Sup. 1.54, 172, 507, 513.

(٢) ديوان الأدب ورقة ٦.

ظللت مع العمار معتمراً له وبت مع الطوّاف بالبيت طائفا

ولد جار الله يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م بزمخشر^(١) من قرى خوارزم في عهد السلطان جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه الذي ازدهرت في عهده التجارة والصناعة، وازدهرت الآداب والفنون وكان يعاونه في إدارة شؤون المملكة نظام الملك أقدر وزراء الإسلام طرا^(٢).

طلب جار الله العلم وهو صغير، ورحل لأجله، وبسببه سقطت رجله فكان يمشي في جاون خشب كما يذكر ابن خلكان: ^(٣) إنه "كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه تلج كثير وبرد شديد في الطريق، فسقطت منه رجله، وإنه كان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك، خوفاً من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قطعت لريبة".

تلمذ الزمخشري على أبي مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني

(١) ذكرها المقدسي في كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٨٩"، قال: "وزمخشر صغيرة، عليها حصن وخذق ومحبس وأبواب محددة، والجسور ترتفع كل ليلة، والجادة تشق البلد، والجامع ظريف بطرف السوق" وأحسن ما قيل فيها أبيات الأمير أبي الحسن علي بن حمزة العلوي:

تبوأها داراً فـداء زمخشرا	جميع قرى الدنيا سوى القرية التي
إذا عد في أسد الشرى زمخ الشرى	واحر بأن تزهى زمخشر بامرئ
ولا طار فيها منجداً ومغوراً	فلولاه ما طن البلاد بذكرها
بأعرف منه في الحجاز وأشهرا	فليس تناها بالعراق وأهله

"أزهار الرياض: ٣/٣٨٥".

(٢) الكامل لابن الأثير ١٠/٧٢.

(٣) وفيات الأعيان ٢/١١٩.

(المتوفى سنة ٥٠٧هـ) الذي يلقب بفريد العصر، ووحيد الدهر في علم اللغة والنحو وكان يضرب به المثل في الفضائل، وقد أقام في خوارزم مدة، فانتفع الناس بعلمه، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها^(١).

وكان الزمخشري محباً لأستاذه، وفيأ له، معترفاً بفضلته، فلما توفي رثاه بقصيدة قال فيها:^(٢)

فقلت لطبعي: هات كل ذخيرة فمن أجله ما زلت أدخر الذخرا
وأبرزُ كريمات القوافي وغرّها فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا
فلهفي على ذاك اللسان وحزّه مفاصلَ أعيا حزّها الفُضْبَ البترا
ولهفي على ألفاظه العذبة التي كأن زلال المزن قد مزج الخمرا
ولهفي على تلك المعاني كأنها منافث سحر يسحر الفِطْنَ الحبرا
فذاك "فريد العصر" حقاً فلن ترى عيونهم من بعده مثله حُرا

وسمع الزمخشري الحديث عن شيخ الإسلام أبي منصور الحارثي ومن أبي سعد الشقاني^(٣)، ومن أبي الخطاب ناصر بن أحمد بن عبدالله بن البطر^(٤) كما أخذ الأدب عن أبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري.

وتخبرنا كتب التراجم أنه قرأ في مكة كتاب سيبويه على عبدالله بن طلحة بن محمد بن عبدالله اليابري المتوفى سنة ٥١٨هـ^(٥).

(١) إرشاد الأريب: ١٤٧/٧، وفيات الأعيان: ١١٩/٢، بغية الوعاة: ٣٨٨.

(٢) القصيدة في ديوان الأدب ورقة ٥٦، عدة أبياتها واحد وستون بيتاً مطلعها:

أيا طالب الدنيا ويا تارك الأخرى ستعلم بعد الموت أيهما أحرى.

(٣) إرشاد الأريب: ١٤٧/٧.

(٤) طبقات المفسرين: ٤١.

(٥) طبقات المفسرين: ١٥، أزهار الرياض ٧٦/٣، بغية الوعاة: ٢٨٤.

ومما يجب ذكره: أن الزمخشري نشأ متحمساً للاعتزال مجاهراً به، فقد كان إذا قصد صاحباً له، واستأذن عليه في الدخول، يقول لمن يأخذ له الأذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب^(١).

وفي سنة ثنتي عشرة بعد الخمس مائة مرض الزمخشري مرضة شديدة سماها بـ"المرضة الناهكة" فعاهد ربه إن شفي من مرضته تلك أن لا يطأ عتبة السلطان ولا يواصل بخدمته أذياه، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرص الشعر فيهم، وأن يعف عن ارتزاق عطياتهم وافتراض صلاتهم مرسوماً وإدراكاً وتسويفاً، ويجدّ في إسقاط اسمه من الديوان ومحوه، وأن يعتصم بجبل التوكل ويتمسك، ويتبتل إلى ربه ويتنسك، وأن يدرس من العلوم ما هو مُجدِّ كعلم القرآن والحديث والفقهِ.^(٢)

توجه الزمخشري في سنة ست عشرة بعد الخمس مائة إلى بيت الله الحرام ليقضي البقية الباقية من عمره بجوار بيت الله.

وهناك في مكة رحب به الأمير أبو الحسن عليّ (بضم العين وفتح اللام) ابن عيسى بن حمزة بن وهاس. كان شريفاً جليلاً وكان ذا فضل غزير وله تصانيف مفيدة في النثر والنظم، ومن شعره ما قاله في الزمخشري:^(٣)

لقد شجني في أم رأسي عزمُه	فأصبحت من عزم الإمام أميما
تمنيت لو لم ألقه وجهاته	ولم يخش قلبي بالفراق كلوما
فديت امرءاً يحشو الفؤاد فراقه	كلوماً ولقياه حشته علوما
وكائن رأينا من أولي العلم والتقى	رجالاً أناخوا بالحجاز قروما
فأحمد "أستاذ الزمان" ضيائهم	وكان وكانوا شارقاً ونجوما

(١) وفيات الأعيان: ٢٥٥/٤.

(٢) انظر مقدمة المقامات.

(٣) انظر (إرشاد الأريب ٢٨٧/٥، إنباه الرواة ٢٩٠/٣، الجبال والأمكنة والمياه ١٥، تاج العروس ٢٤٣/٣، أزهار الرياض: ٢٩٢/٣).

اتجه الزمخشري إلى التأليف والتصنيف والتدريس وتحلّق حوله فتیان مكة
وقصده طلاب العلم من أرجاء العالم الإسلامي يأخذون عنه، وأكثر الزمخشري
نفسه من الفخر بمجالسه تلك فقال: (١)

وسميت بين العرب والعجم رحلة
ألم تر أنّي - حيثما كنت - كعبةً
فشرقهم يهوي إلى النور قابسا
وأصبحت ممدوحاً لكل ممدح
ودونك ديوان المدايح فاطلع
إليّ يزجون المطيّ عواسفا
يحفّون بي كالمطائفين طوائفا
وغربهم يسعي إلى البحر غارفا
ترى مجلس الأمجاد لي متراصفا
تجد ناظماً فيّ الثناء وواصفا

وعلى الرغم من مجاورة الزمخشري لبيت الله، وما تمتع به فيه من الهدوء
النفسي، إلا أن ذلك كله لم ينسه الحنين إلى وطنه والرغبة في العودة إليه. ويترك
الزمخشري مكة عائداً إلى وطنه. وما أن تحرك الركب حتى ندم على فعلته تلك،
وفترت همته، وضعف في نفسه شوق العودة إلى الوطن، فيصل جار الله إلى
وطنه فاتر الهمة حائناً إلى الحجاز.

ولم يستطع الزمخشري صبراً فيعود إلى الحجاز، وفي طريقه إليه يمرّ
بالعراق فيزوره الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجري مهناً له بقدومه، فلما
جلس إليه بهره علم الزمخشري وأخلاقه فأنشد ابن الشجري متمثلاً:

كانت مساءلة الركبان تخبرني
حتى التقينا فلا والله ما سمعت
عن أحمد بن دؤاد أطيّب الخبر
أنني بأحسن مما قد رأى بصري

وأنشده أيضاً:

(١) ديوان الأدب ورقة ٧٩.

ومستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صَعَّرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ

فلما فرغ من كلامه شكر الزمخشري الشريف، وعظّمه وتصاغر له وقال:

إن زيد الخيل دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فحين بصر
بالنبي - صلى الله عليه وسلم - رفع صوته بالشهادتين، فقال له الرسول - صلى
الله عليه وسلم - يا زيد الخيل! كل رجل وصف لي وجدته دون الصفة إلا أنت،
فإنك فوق ما وصفت. وكذلك الشريف. ثم دعا له وأثنى عليه. (١)

وينقل الزمخشري كتبه كلها إلى مشهد أبي حنيفة ولم يبق معه إلا كتاب الله
المبين ويقول الزمخشري: (٢)

سأبذل معروفى ومن كان عارفاً سماحة منع العرف أسدى العوارفا
ووقفنى حتى وقفت نفائسى وأعلاق أسفاري فابرحت واقفا
على مشهد النعمان نور قبره كما نور الإسلام مالك سالفاً

فيشد الزمخشري الرحال إلى مكة، ويعيش عيشه الزهاد المتقشفين منتظراً
داعي الله صباح مساء، قال (٣):

قَرُبَ الرّحيلُ إلى ديار الآخرة فأجعل إلهي خيرَ عمري آخره
وارحم مبيتي في القبور ووحدي وارحم عظامي حين تبقى ناخره
فأنا المسكين الذي أيامه ولت بأوزار غدت متواتره
فلئن رحمت فأنت أكرم راجِم فبحار جودك يا إلهي زاخره

(١) إرشاد الأريب ١٤٧/٧، نزهة الألباء: ٢٩١.

(٢) ديوان الأدب: ورقة ٨٠.

(٣) لفظ الألباء بنيل طبقات الحفاظ: ٣٣٩.

ثم عاد الزمخشري إلى وطنه حيث وافاه أجله بجرجانية خوارزم ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ/١٤٤٤م، وأوصى أن أن تكتب على لوح قبره الأبيات الآتية^(١):

يا من يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها والمح في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

ونختم الكلام بقول القفطي^(٢):

"كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم انساً واطلاعاً على كتبها، وبه ختم فضلاؤهم".

الشعبوية

إن بداية الشعبوية محاطة بالغموض لأنها بدأت عملها في جوّ من الكتمان والحذر لذلك يتعذر علينا تحديد البداية، ولكنها ظهرت في مطلع القرن الثاني للهجرة وهي تمثل جانباً من محاولات شعوب غير عربية لضرب السلطان العربي عن طريق الفكر والعقيدة، فهي تتكشف عن صراع ثقافي ديني واسع*. فالشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى فضلاً لهم على غيرهم، وهم فئات مختلفة من شعوب متعددة تحاول زعزعة السلطان العربي، أو إضعاف الإسلام وإرباكه، وكذلك لصدّ تيار الثقافة العربية الإسلامية، ولنفس التراث العربي الإسلامي، وقد حاولت بث الوعي السياسي والديني بين صفوفها وإحياء تراثها الثقافي.

(١) وفيات الأعيان ٢٥٩/٤، وانظر بحثنا "القصيدة البعوضية" مجلة الأستاذ، سنة ١٩٦٧.

(٢) إنباه الرواة ٢٧٠/٣.

(*) الجذور التاريخية للشعبوية ص ٩.

فقد ظهرت بين شاعر يتغنى بأمجاد ساسان وحضارتها، وزنديق يبشر بالمانوية^(١) والزرادشتية^(٢) والمزدكية^(٣).

ومن المؤلف أن تنسب حركات الموالي والأعاجم إلى أن السلطان العربي

(١) أسس المانوية ماني بن فتق بن بابك وكان يزعم أنه نبي، وكان ظهور ماني زمن الملك سابور بن اردشير الذي تولى الملك سنة ٢٤٢ ميلادية (الفهرست ٤٧٠) وقال: "إن مبدأ العالم كونان إحداهما نور والآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل عن الآخر. وذلك الكون غير المجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما" (الفهرست ص ٤٧٣). وثبت ماني في ديانته فكرة الحلول. ومن معتقدات المانوية "أنهم لا يرون الذبيحة ولا يأكلون اللحم ولا شيئاً من الحيوانات" نظم الجوهر ص ١٤٦. ويحرمون من الماء الطهور ولا يقرون الغسل به. كما وضع ماني عبادات منها الصلاة على أوقات، تبدأ الصلاة الأولى منها عند الزوال والثانية بين الزوال وغروب الشمس ثم صلاة المغرب بعد غروب الشمس ثم صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات وكذلك فرض ماني صياماً أمده ستة وثلاثون يوماً (الفهرست ص ٤٨٠) ولقد اضطهد الملوك الساسانيون المانوية اضطهاداً شديداً فإنه لما أظهر ماني ديانته أيام الملك سابور طلبه ولكن لم يظفر به، وعندما تولى هرمز بن سابور الملك ألقى القبض على ماني وجمع الناس وقال فيهم: هذا الرجل أعلن ضرورة قتل الناس لخلص العالم، ولهذا فمن الضرورة أن أبدأ بقتله من أجل خلاص العالم منه، فقتله وعلق جسده على باب مدينة جند سابور التي تعرف إلى الآن ببوابة ماني (الأخبار الطوال ص ٤٩).

(٢) والزرادشتية نسبة إلى زرادشت ابن اسفيخان الذي ظهر أيام الملك بشتاست وادعى النبوة ووضع أسس الديانة الزرادشتية (مروج الذهب ج ١ ص ١٤٢) في كتاب الإفستا الذي في يد المجوس. وأمست الزرادشتية الديانة الرسمية أيام الساسانيين واستمرت حتى الفتح الإسلامي. والزرادشتية من الديانات الثنوية "أثبتوا أصلين اثنين مديرين قديمين يقتسمان الخير والشر، ويسمون إحداهما النور والثاني الظلمة" الملل والنحل ج ٢ ص ٧٣. وكانت الزرادشتية "يستحلون زواج الأمهات وقالوا الابن أحرى بتسكين شهوة أمه وإذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة" (تلييس إبليس ص ٧٣).

(٣) والمزدكية وضع أسسها مزدك الذي ظهر في أيام الملك قباد بن فيروز وذلك في أواخر القرن الخامس الميلادي (الفهرسية ص ٤٩٣) وهي من العقائد الثنوية لأنها اعتبرت (النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق، والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى (الملل والنحل ج ١ ص ٨٦).

في العصر الأموي اضطدهم واحتقرهم، وأنه أرهقهم بالضرائب وأبعدهم عن الإدارة، وإلى حرمانهم من الوظائف وفرض الجزية عليهم كما فعل الحجاج في العراق وإلى عدم إعطائهم الأعطيات في الجيش كالعرب، وسار على سياسة العصبية للعرب واحتقار من سواهم ونبذهم اجتماعياً.

لقد وجدت الدعوة العباسية تأييداً أكيداً من العجم وبينهم الموالي إذ إن هدفهم كان تحقيق المساواة الاجتماعية أو الاشتراك في الإدارة لأن العباسيين حققوا ذلك إلى درجة بعيدة وواسعة.

ومن أوائل من أعلن شعوبيته إسماعيل بن يسار في الفترة الأموية الأخيرة يقول مفتخراً بالفرس:

رب خال متوج لي وعمّ	ماجد مجتدى كريم النصاب
إنما سمي الفوارس بالفر	س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أمام علينا	واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي أن جهلت عنا وعنكم	كيف كنّا في سالف الأحقاب
إذ نري بناتنا وتدسون	سفاها بنااتكم في التراب ^(١)

ثم أعلن بجلاء عن نزعتة الشعوبية في قصيدة أنشدها أمام هشام بن عبدالمك يفتخر فيها بالعجم، جاء فيها:

من مثل كسرى وسابور الجنود معا	والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا	وهم أذلوا ملوك الترك والروم

وحرمت المزدكية أكل لحم الحيوان كالمناوية. (الملل والنحل ج ١ ص ٨٦) ودعا مزدك بأن تكون

النساء والأموال شركة بين الناس كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ) (الملل والنحل ج ١ ص ٨٦).

(١) الجذور التاريخية للشعوبية ص ٢٥.

يمشون في حلق الماذى سابغةً مشي الضراغمة الأسد للهاميم
هناك أن تسألني تنبي بأن لنا جرثومة قهرت عزّ الجراثيم^(١)

وقد أدت هذه النزعة إلى التتكر به ومطاردته، وقد جاء في الأغاني: "وكان
ابن يسار مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم فكان لا يزال مضروباً محروماً
مطروداً".^(٢)

وازداد نشاط الغلاة في أواخر العصر الأموي، وكانوا يتمسكون بتراثهم الديني
المجوسي، ويتسترون باسم الإسلام، وقد انتبه البعض إلى دورهم الخطر وإلى وجهتهم
المعادية للعروبة والإسلام حين عظم دورهم في الدعوة العباسية، فهذا نصر بن سيار
يحذر القبائل العربية في خراسان من اتباع الدعوة العباسية، ويقول:

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها فليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ما لكم تلقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلكم ممن تأشب لا دين ولا حسب
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم فإن دينهم أن تقتل العرب^(٣)

وكان للدعوة العباسية أثرها في تنشيط الوعي القومي بين الفرس وتهيئة
الظروف لنشاط الحركات الدينية الفارسية من خرمية ومانوية وزردشتية.

وحملت الخرمية راية الثورة المسلحة وانتشرت دعوتها في بلاد فارس، وكانت

(١) المصدر السابق والصفحة.

(٢) المصدر السابق ص ٤٦.

(٣) الأخبار الطوال ص ٢٦.

تمثل في الحقل الاجتماعي اشتراكية مزدك، وفي الحقل الديني والسياسي ضرب الإسلام وإعادة السلطان إلى العجم، وقد تستر الخرمية أحياناً، وحاولوا أن يتخذوا من بعض مبادئ الغلو سبيلاً للظهور بمظهر إسلامي فنقلوا الإمامة من العباسيين إلى أبي مسلم الخراساني، وهذا يبدو في ثورة إسحاق الترك والمقنع مثلاً. ويبدو لي - الدكتور عبدالعزيز الدوري - أن الوعي الفارسي وجد في أبي مسلم رمز توثب، فاعتبره بعضهم خليفة زرادشت، واعتبره آخرون المنقذ الذي حل فيه جزء إلهي كما فعل المبيضة^(١).

وبذل الكتاب والأدباء والشعراء من الشعوبيين كل الطرق لبث الثقافة الفارسية، وحاولوا بث الطابع الفارسي في الإدارة والمراسيم العباسية، مع تقليل شأن الثقافة العربية الإسلامية، قال ابن قتيبة: "وأعاذنا الله من فتنة العصبية وحمية الجاهلية وتحامل الشعوبية، فإنها بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة وتغلو في القول وتسرف في الذم وتبتهت بالكذب وتكابر بالعصيان"^(٢).

واندفع الشعوبيون في الكتابة في مثالب العرب وفي الحط منها، فهذا أبو نواس يتذكر تراث الساسانيين، ويقول:

مسارحها الغربي من نهر صرصر	فقطربل فالصالحية فالصفر
تراث أنو شروان كسرى ولم تكن	مواريث ما أبقت تميم ولا بكر
قصدت بها ليلي وليل ابن حرّة	له حسب زاك وليس له وفر ^(٣)

ولقد سخر من العرب وتهكم بهم، فهو يقول:

(١) الجذور التاريخية للشعبوية ص ٣٢.

(٢) الجذور التاريخية للشعبوية ص ٥١.

(٣) المصدر السابق ص ٦٥.

عاج الشقي على رسم يسائله
يبكي على ظلل الماضين من أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهم
لا جف دمع الذي يبكي على حجر

وعجت أسأل عن خمارة البلد
لا درّ درك قل لي من بنو أسد
ليس الأعراب عند الله من أحد
ولا صفا قلب من يصفو إلى وتد^(١)

ومن شعره أيضاً يذم به العرب ويفخر بالفرس:

وإذا أعاشر عصبة عربية
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم
لا يبيذخون على النديم إذا انتشوا

بدرت إلى ذكر الفخار تميم
شراً فمنطق شرهم محسوم
ولهم إذا العرب اعتدت تسليم^(٢)

وهذا بشار بن برد العقيلي بالولاء وأصله من طخارستان اتهم بالزندقة وقتل

بسبها^(٣) قال في العرب والتفاخر بالفرس:

هل من رسول مخبر
من كان حيّاً منهم
بأنني ذو حسب
جدي الذي أسمو به
وقيصر خالي إذا
إنّنا ملوك لم نزل
حتى استلمنا ملكها
حتى رددنا الملك في

عني جميع العرب
ومن ثوى في الترب
عال على ذي حسب
كسرى وساسان أبي
عددت يوماً نسبي
من سالفات الحقب
بملكنا المسكتاب
أهل النبي العربي

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٦ .

(٢) الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية ص ٧٣ .

(٣) وفيات الأعيان ١/٢٤٥ .

من الذي عاد الهدى والدين لم يستلب^(١)

وقال مفتخراً بأصله الفارسي:

أنا ابن الأكرمين أباً وأما
تفاخر يا ابن راعية وراعي
تنازعي المرازب عن طخار
بني الأحرار حسبك من خسار^(٢)

وقال متوعداً أبا جعفر المنصور لقتله أبا مسلم الخراساني:

أبا جعفر ما طول عيش بدائم
فإنك لم تسمع بقتل متوج
ومروان قد دارت على رأسه الرحي
فأصبحت تجرى سادراً في طريقهم
ولا سالم عمّ ا قليل بسالم
عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
وكان لما اجرمت نزر الجرائم
ولا تنقضي أشباه تلك النقائم^(٣)

وهذا المتوكلي نرى له وجهة قومية تتغنى بالمجد الماضي الذي يحلم
بإعادته فهو يقول:

أنا ابن الأكارم من نسل جم
ومحيي الذي باد من عزهم
وطالب أوتارهم جهرة
وحائز أرث ملوك العجم
وعفى عليه طوال القدم
فمن نام عن حقهم لم أنم

ثم يقول:

معي علم الكابيان الذي
فقل لبني هاشم أجمعين
به أرتجي أن أسود الأمم
هلموا إلى الخلع قبل الندم

(١) ديوان بشار بن برد ٣٧٧/١.

(٢) المصدر السابق ٢٢٩/٣.

(٣) الصراع بين العرب والموالي ص ٩١.

ملكناكم عنوة بالرماح
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز
فإنني سأعلو سرير الملوك
طعناً وضرباً بسيف خذم
لأكل الضباب ورعي الغنم
بحد الحسام وحرّف القلم^(١)

وهذا الصغدي أبو يعقوب إسحق بن حسان بن فوهي الخريمي فارسي الأصل ولد في بلاد الصغد ومنها رحل إلى بغداد واختار صحبة الزنادقة المجان^(٢) فهو يقول:

وناديت من مرو وبلخ فوارسا
فيا حسرتا لا دار قومي قريبة
وأن أبي ساسان كسرى بن هرمز
ملكنا رقاب الناس في الشرق كلهم
نسومكمُ خسفاً ونقضي عليكمُ
لهم حسب في الأكرمين حسيب
فيكثر منهم ناصري ويطيب
وخاقان لي لو تعلمين نسيب
لنا تابع طوع القياد جنيب
بما شاء منّا مخطئ ومصيب^(٣)

وقال الصغدي:

أبا الصغد بأس إذ تعيرني جمل
هم فاعلموا أصل الذي فيه منيتي
إذا أنت لم تحم القديم بحادث
سفاهاً ومن أخلاق جارتنا الجهل
على كل فرع في التراب له أصل
من المجد لم ينفعك ما كان من قبل^(٤)

واستمع إلى علان الشعبي الوراق يقول:

إن لي فخرأ مباءته
في قرار النجم مأهول

(١) الجذور التاريخية للشعبية ٦٥.

(٢) تاريخ بغداد ٦/٣٢٦.

(٣) الشعر والشعراء ٢/٧٣١.

(٤) المصدر السابق ٢/٧٣٥.

ورجال شربهم غـدق
كسرويات أبوتنا
هم لما حازوا مباديل
غرر زهر مقاويل^(١)

وهذا عبدالله طاهر بن الحسين يقول في قصيدة يذم العرب ويفخر بالفرس:

اقصري عمّ اطمحت له
سائلني عمّ ن تسائلني
أنا من تعرف نسبته
سل بهم تنبيك نجدتهم
وأبي من لا كفاء له
ففراغي عنك مشغول
قد يرد الخبر مسؤل
سلفي الغر البهاليل
مشرفيات معاقيل
من يسامي مجده قولوا

سل بهم والخيل ساهمة
أبطن المخلوع كلكه
فتوى والترب مضجعه
قاد جيشاً نحو بابله
من خراسان مضى معهم
حولته جرد أبابيل
ومواليه المقاويل
غال عنه ملكه غول
ضاق عنه العرض والطول
كليوث ضمها غيل^(٢)

جاء في "الشعبوية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية"^(٣) وقد أسهم الشعراء العرب في المعركة ضد الشعبوية وكان لهم دور كبير في الرد عليها، فإنه لما وقف الشاعر عبدالله بن الحر الجعفي على خطر حركة المختار أنشد في تصويرها قائلاً:

(١) الجذور التاريخية للشعبوية ص ٦٤.

(٢) العقد الفريد: ١٩٨/٢.

(٣) ص ١٩٢.

وما ترك الكذاب من جل مالنا ولا المرء من همدان غير شريد
أفي الحق أن يحتاج مالي كله وتأمين عندي ضيعة ابن سعيد

وأنشد أعشى همدان في هجاء المختار:

فقتل من أشرافنا في محالهم عصائب منهم أردفت بعصائب
فكم من كمين قد أبادت سيوفهم إلى الله أشكو رزء تلك المصائب
يقتلنا المختار من كل غائط فيالك دهر مرصد بالعجائب^(١)

وكتب نصر بن يسار إلى مروان الثاني يخبره خطر الشعوبية على الدولة

الإسلامية، فقال:

أرى بين الرماد وميض جمر فأحج بأن يكون له ضرام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقظ أم نيام؟
فإن يقظت فذاك بقاء ملك وإن رقـدت فـإنـي لا ألام
فإن يك أصبحوا واثووا نياما فقل قوموا فقد حان القيام^(٢)

وقال أحد الشعراء العرب في ذم الهيثم بن عدي الذي عرف عنه ذم العرب:

يا هيثم بن عدي لست للعرب ولست من طيء إلا على شغب
إذا نسبت عدياً في بني ثعل فقدم الدال قبل العين في النسب^(٣)

وقال شاعر آخر في هجاء الهيثم بن عدي:

(١) الأخبار الطوال: ٢٩٧.

(٢) الأخبار الطوال ص ٣٥٧.

(٣) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ٢٦٤/٧.

يا ابن الخبيثة من أهجو فأفضحه إذا هجوت وما تتعي إلى أحد^(١)

ولما شبّه الزنديق يزدان بن باذان حجاج بيت الله عند مناسكهم بقوله: "ما أشبههم إلا ببقر تدوس البيدر". ردّ عليه الشاعر العلاء بن الحداد الأعمى مستثيراً الخليفة موسى الهادي عليه، فقال:

أيأ أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والمنير
ماذا ترى في رجل كافر يشبّه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوا جمرأ تدوس البر والدوسر^(٢)

وحين افتخر عبدالله بن طاهر بن الحسين بأبيه على قتل الأمين رد عليه الشاعر العربي محمد بن يزيد الأموي، فقال:

لا يرعك القال والقيـل كل ما بلغت تضليل
يا ابن بيت النار موقدها ما لحاذيه سراويل
من حسين من أبوك ومن مصعب غالتكم غول
نسب من الفخر مؤتـشـب وأبواب أراذيل
قاتل المخلوع مقتول ودم المقتول مظلـول^(٣)

وهناك قصائد كثيرة في رد العرب للشعبوية تجدها في كتب التواريخ ودواوين الشعراء وكتب الأدب العربي.

ومما قالته الشعبوية: "للأمم كلها من الأعاجم ملوك تجمعها ومدائن تضمها

(١) المصدر السابق ٢٦٤/٧.

(٢) ضحى الإسلام ٦٧/١.

(٣) الفرج بعد الشدة ٦٦/١.

وأحكام تدين بها وفلسفة وبدائع من الأدوات والصناعات، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم.^(١)

وقالت الشعوبية إن العرب مجموعة قبائل لا رابطة بينهم وليس لهم من الحضارة نصيب كالفرس والروم وإنهم ينتقلون من مكان إلى آخر وأساليب قتالهم الحربية كانت بسيطة.

وقد ردّ أنصار العرب بقولهم "فهم أقوى الناس همماً وأشدّهم أحلاماً وأصحهم أجساماً وأعزهم جاراً وأحماهم ذماراً، وأجودهم فطناً لما أكسبهم إياه صفاء الجو ونقاء الفضاء."^(٢)

وادعت الشعوبية أن إسحاق أبو العجم، وأن أمه سارة حرة، بينما نجد إسماعيل أبا العرب وأمّه هاجر وهي أمة، وسموا العجم "بني الأحرار" والعرب "بني اللخناء" بضوء هذا الادعاء قال شاعرهم:

في بلدة لم تصل عكل بها طنبا ولا خباء ولا عك وهمدان
ولا لجرم ولا بهراء من وطن لكنها لبني الأحرار أوطان
أرض تبني بها كسرى مناسكه فما بها من بني اللخناء إنسان^(٣)

وهاجمت الشعوبية اللغة العربية حتى أنهم جوزوا الصلاة بالفارسية، وأثار هذا الهجوم العرب وبعض المسلمين من غير العرب لأن العربية لغة القرآن ولأنها اللغة العامة للثقافة خلال عصور.

انبرى الجاحظ والثعالبي وغيرهما للدفاع عن اللغة العربية وإظهار محاسنها

(١) العقد الفريد ٤٠٥/٣.

(٢) مروج الذهب ٢٤٤/٣.

(٣) الجذور التاريخية للشعوبية: ٦٩.

واعتبروها أشرف اللغات وأسناها.

لقد بذل الكتّاب والأدباء من الشعوبيين كل سبيل لبعث الثقافة الفارسية وحاولوا بث الطابع الفارسي في الإدارة والمراسيم العباسية، هذا مع تقليل شأن الثقافة العربية الإسلامية والاستهانة بها. وكان موقفهم يستند إلى العصبية الجامحة لا إلى الإدراك.

واتخذ نشاط هؤلاء سبلاً مختلفة، منها إكثارهم من الترجمة عن الفارسية في موضوعات تتصل بصميم الذات الفارسية كالأدب والتاريخ والتقاليد والمثل. وقد شهد العصر العباسي الأول حركة ترجمة واسعة عن الفارسية، وهي مستقلة عن حركة الترجمة التي تبناها الخلفاء، ومن أمثلة هذه الترجمات (خداينامه) أو سير الملوك (ملوك الفرس)، وهو كتاب ينطوي على كثير من الأساطير والمواعظ والتمجيد ويغلب عليه عنصر القصة والأسطورة. ونظراً لخطورته لدى الفرس فإننا نسمع عن ثمانية صور لـ(خداينامه) بعضها مترجم والبعض الآخر مؤلف ومترجم، ومنها (الآيين نامه) أو المراسيم والتقاليد الساسانية وكتاب (مزدك) وهو يتضمن أدباً ومثلاً أخلاقية مجوسية لا تأتلف والمفاهيم الإسلامية، وقد ترجمه ابن المقفع. كما أعد أبان بن عبد الحميد اللاحقي ترجمة أخرى له. ومنها كتاب (التاج) في سيرة أنوشروان، وكتاب (كليلة ودمنه) الذي تصرف ابن المقفع في ترجمته وأضاف إليه باباً (باب برزويه) للترويج للمانوية كما أوضح البيروني. ومنها كتاب سيرة الفرس المعروف بـ(اختيار نامه) نقله إسحق بن يزيد. هذا وترجمت بعض الكتب الدينية^(١).

وقد تصدت المعتزلة للرد على الشعوبية والدفاع عن مبادئ الإسلام، وكان واصل بن عطاء يعقد الجلسات للرد على الزنادقة وتقنيد حججهم. وكان يناقش مشاهيرهم أمثال صالح بن عبدالقدوس وغيره، فقطعهم بأقل كلال.

(١) الجذور التاريخية للشعوبية: ٥٠.

وكان لواصل تلاميذ كثيرين أعددهم إعداداً فكرياً عميقاً، وكان يبعث بهم إلى الأقطار (يدعون إلى مبادئ الاعتزال ويردون من خلال ذلك على خصوم الإسلام. فبعث واصل منهم عبدالله بن الحارث إلى المغرب فأجابه خلق كثير، وبعث إلى خراسان حفص بن سالم فدخل ترمذ وناظر جهم بن صفوان حتى قطعه. وبعث القاسم إلى اليمن وبعث أيوب إلى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة وعثمان الطويل إلى أرمينية^(١).

والزمخشري المعتزلي^(٢) تبنى فكرة الرد على الشعوبية والدفاع عن الإسلام والعرب في مؤلفاته التي سنورها.

"الزمخشري وكتابه المفصل في صناعة الإعراب" تعريف بالكتاب:"

قال الزمخشري مفتخراً بسعة معلوماته في علم النحو:^(٣)

وبي يستعيز النحو من أن يسوسه نهى لم يجدها الذائقون حصائفا
فقل أين خلّى سيبويه كتابه يقل جبر الله مأوى حالفا
وما في رواة الكتب راوية له سوى واحد فانظر فلست مصارفا
ولو لم تكن لي غير هذي فضيلةً لبرزت سباق الاضاميم راعفا

وكان يزعم: أنه ليس في كتاب سيبويه مسألة إلا وقد تضمنها هذا الكتاب. ويحكى: إن بعض أهل الأدب، أنكر عليه هذا القول ونكر له مسألة من كتاب سيبويه وقال: هذه ليست فيه. فقال: وإنما لم تكن فيه أيضاً، فهي فيه ضمناً، ويبيّن له ذلك.^(٤)

(١) الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية ص ١٧٩.

(٢) راجع بحثنا هذا ص: ٣.

(٣) ديوان الأدب، ورقة ١٣٦ مطلع القصيدة:

سقى الله بطن الايك اوطف واكفاً يجال بطن الأيك أزرق وارفافا.

(٤) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص: ٢٩٠.

شرح الزمخشري في تأليف كتاب المفصل في غرّة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وفرغ منه المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة. ولا ريب أن يبلغ الكتاب مكانة عالية، فقد شرحه وعلق عليه كثير من النحاة، ذكر بروكلمان: أن له تسعاً وعشرين شرحاً.

وأول طبعة له في كريستيانا (Christianiae) سنة ١٨٥٩م باعتناء J.P. Broch كما ترجم إلى الألمانية وطبع سنة ١٨٧٣.

ولعل أكثر شراح المفصل شهرة أبا البقاء يعيش بن علي بن يعيش الحلبي (١١٥٨هـ/١١٥٨م - ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وقد طبع في ليسك سنة ١٨٨٢م. كما طبع المفصل وبعض شروحه عدة طبعات في مصر.

ومما قيل في كتاب المفصل: (١)

"مفصل" جار الله في الحسن غاية وألفاظه فيها كدر مفصّل ولولا التقى، قلت: المفصل معجز كأي طوال من طوال المفصّل

وقال الدكتور علي عبدالواحد: (٢)

"إن جماعة المتأخرين جاؤوا بمذهبهم في الاختصار والاستيعاب لجميع أبواب العلم، فوضعوا أهمّ كتب النحو والصرف وأكملها وأدقها وأكثرها تهذيباً وتنقيحاً، ومن أشهرهم الزمخشري صاحب المفصّل في النحو".

"الزمخشري والشعوبية في كتابه المفصّل":

بدأ الزمخشري مقدمة كتابه المفصّل بأن حمد الله وأثنى عليه على أن جعله

(١) كشف الظنون ١٧٧٤/٢.

(٢) فقه اللغة: ص ٢٦٩.

من علماء العربية وعصمه من الشعوبية، قال^(١):

"الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية وجباني على الغضب للعرب والعصبية وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وامتاز وأنضوى الى لفيف الشعوبية وانحاز، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بالسنة اللاعنين، والمشق بأسنة الطاعنين، وإلى أفضل السابقين والمصلين أوجه أفضل صلوات المصلين محمد المحفوف من بني عدنان بجماعها وأرحائها النازل من قريش في سرّة بطحائها، المبعوث إلى الأسود والأحمر بالكتاب العربي المنور ولآله الطيبين أدعو الله بالرضوان وأدعوه على أهل الشقاق لهم والعدوان".

ثم يرد على الشعوبية قائلاً بأن الله جعل خيرة كتبه القرآن الكريم ونبيه في عرب خلقه وليس في عجم خلقه:

"ولعل الذين يغضّون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها، حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة كتبه في عجم خلقه ولكن في عربيه، لا يبعدون عن الشعوبية مناظرة للحق الأبلج، وزيفاً عن سواء المنهج".
ثم يقول إن اللغة العربية أم اللغات ويحتاجها صاحب العلوم الإسلامية. وهذه العلوم محتاجة إلى علم الإعراب:

"والذي يقضي منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا واقفاره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع، ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الإعراب". والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين ... والاستظهار في مآخذ النصوص بأقواويلهم والتشبيث بأهداب فسرهم وتأويلهم. وبهذا اللسان مناقلتهم في

(١) مقدمة كتاب المفصل.

العلم ومحاورتهم، وتدريسهم، ومناظراتهم، وبه تقطر في القراطيس أقلامهم، وبه تسطر الصكوك والسجلات حكاهم، فهم ملتبسون بالعربية اية سلوكا، غير منفكين منها أينما وجهوا كل عليها حيث سيروا".

وعلى الرغم من أهمية اللغة العربية، فالشعوبيون يجحدون فضلها وينهون عن تعليمها وتعلمها:

"ثم إنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ويدفنون خصلها ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها، وينهون عن تعلمها وتعليمها، ويمزقون أديمها، ويمضغون لحمها. فهم في ذلك على المثل السائر: "الشعير يؤكل وينم". ويدعون الاستغناء عنها وإنهم ليسوا في شق منها، فإن صح ذلك فما بالهم لا يطلقون اللغة رأساً والإعراب، ولا يقطعون بينهما وبينهم الأسباب، فيطمسوا من تفسير القرآن آثارها، وينفضوا من أصول الفقه غبارهما، ولا يتكلموا في الاستثناء فإنه نحو، وفي الفرق بين المعرف والمنكر فإنه نحو، وفي التعريفين تعريف الجنس وتعريف العهد فإنهما نحو، وفي الحروف كالواو والفاء وثم ولام الملك ومن التبويض ونظائرها، وفي الحذف والإضمار، وفي أبواب الاختصار والتكرار، وفي التطبيق بالمصدر واسم الفاعل، وفي الفرق بين إن وأن وإذا ومتى وكلما وأشباهاها مما يطول ذكرها، فإن ذلك كله من النحو. وهلا سفهوا رأي محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله فيما أودع كتاب الإيمان، وما لهم لم يتراطنوا في مجالس التدريس وحلق المناظرة ثم نظروا هل تركوا للعلم جمالاً وأبهة، وهل أصبحت الخاصة بالعامّة مشبهة، وهل انقلبوا هزأة للساخرين وضحكة للناظرين".

ثم يبين الزمخشري أهمية علم الإعراب قائلاً:

"هذا وإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا، وآثاره الحسنة عديد الحصا، ومن لم يتق الله في تنزيله، فاجترأ على تعاطي تأويله، وهو غير معرب، ركب عمياء، وخبط خبط عشواء، وقال ما هو تقوُّلٌ وافتراءٌ وهراء، وكلام الله منه براء،

وهو المرقاة المنصوبة إلى علم البيان، المطلع على نكت نظم القرآن، الكافل بإبراز محاسنه، الموكل باثارة معادنه، فالصاد عنه كالساد لطرق الخير كيلا تسلك والمريد بموارده أن تصاف وتترك".

ويبين الزمخشري الحافز الذي دفعه لتأليف كتاب المفصل:

"ولقد ندبني ما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب. وما بي من الشفقة والحذب على أشياعي من حفة الأدب، لإنشاء كتاب في الإعراب، محيط بكافة الأبواب، مرتباً ترتيباً يبلغ بهم الأمد البعيد بأقرب السعي، ويملاً سجالهم بأهون السقي".

ثم يبين الزمخشري منهجه في تأليف كتاب المفصل:

"فأنشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب المفصل في صنعة الإعراب مقسوماً أربعة أقسام. القسم الأول: في الأسماء. القسم الثاني: في الأفعال. القسم الثالث: في الحروف. القسم الرابع: في المشترك. وصنفت كلاً من هذه الأقسام تصنيفاً، وفصلت كل صنف منها تفضيلاً حتى رجع كل شيء في نصابه، واستقر في مركزه، ولم أدر فيما جمعت فيه من الفوائد المتكاثرة، ونظمت من الفوائد المتناثرة، مع الإيجاز غير المخل، والتلخيص غير الممل مناصحة لمقتبسيه".

ثم يوضح: على القارئ:

أرجو أن أجتني منها ثمرتي دعاء يستجاب، وثناء يستطاب، والله عز سلطانه ولي المعونة على كل خير والتأييد والملي بالتوفيق فيه والتسديد".

الزمخشري وكتاب مقدمة الأدب:

تعريف بالكتاب:

ألف الزمخشري مقدمة الأدب لتعليم الفرس للسان العربي، وزودها بشروح باللغة الفارسية، وأهداها إلى الأمير بهاء الدين أبي المظفر أئسوز بن خوارزم شاه. طبع الكتاب وتزستاين I.G. Wetzstain في مجلدين سنة ١٨٤٣ في

ليسك بعنوان : Lexicon Arabicum Persicum

وطبع الكتاب في طهران باهتمام سيد محمد كاظم إمام سنة ١٩٦٣. كما ترجمه إلى التركية إسحاق أفندي أحمد بن خير الدين (المتوفى سنة ١١٢٠هـ) وسماه (أقصى الأرب في ترجمة مقدمة الأدب).
"الزمخشري والشعوبية في كتاب مقدمة الأدب":

بدأ الزمخشري مقدمة كتابه "مقدمة الأدب" بأن حمد الله وأثنى عليه وذلك بتفضيله اللغة العربية على جميع اللغات كما فضل القرآن الكريم على جميع الكتب، قال:
"الحمد لله الذي فضّل على جميع الألسنة لسان العرب، كما فضّل الكتاب المنزل به على سائر الكتب والصلاة على النبي الأُمي العربي، وعلى آله أشرف العرب بعد النبي".

ثم مدح الملوك الذين أغدقوا عطاياهم وهباتهم على علماء الملة الإسلامية وعلى الشعراء والخطباء:

"ولجلالة هذا اللسان وما جعل الله له من نباهة الشان، وإن الحاجة إليه سانحة في الملة الإسلامية في أنواع علومها وفنون آدابها كان المتعاطون لإتقانه والتبحر فيه معدودين في علماء هذه الأمة المذكورين في طبقات الأئمة، ومن صنع الله تعالى لهذه الطبقة أن الملوك لم تمطر سحائبهم، ولا فاضت أعطياتهم ومواهبهم على أحد فيضها على هؤلاء من أدبائهم وخطبائهم ومراسليهم وشعرائهم. ولم يخل بعد انقضاء دولة العرب عصر من الأعصار من ملك فاضل جواد يرغب فيهم ويصطف فيهم ويكلفهم ويكفيهم، ويتعصب لصناعتهم، ويحرص على تنفيق بضاعتهم".

ثم يعظم الزمخشري ويفخم الأمير أبا المظفر اتسوز بن خوارزم شاه لأنه اهتم باللغة العربية وبالعلوم الإسلامية وذلك لطلبه من الزمخشري أن يؤلف كتاباً لتعليم الفرس اللغة العربية، قال:

"والذي اصطفاه في زماننا لنصرة الأدب، وقذف في قلبه الرغبة في

كلام العرب الأمير الأجل الاسفهلسالار بها الدين علاء الدولة نجم الملوك والسلطين أبو المظفر اتسوز بن خوارزم شاه أدام الله علاه، ونصر لواءه، فغاية لذته في مجالسة الأفاضل وقصارى لهوه في منادمة الأماثل، ولا يزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدوداً، وجنابهم بإنعامه الفائض مجوداً، وصلاته وخلعه مترادفة عندهم متواليّة، رائحة إليهم غادية، وقد رسم لي أمره العالي زيد علواً بتحرير نسخة من كتاب "مقدمة الأدب" لخزانة كتبه المعمورة فعملت على امتثال رسمه، وجعلت الكتاب موسوماً باسمه لأن هذا الكتاب قد أصاب قبولاً في القلوب، وهبّ في البلاد مهب الصبا والجنوب، فأردت أن لا يزال مذكوراً في كل مكان وزمان، ويكون اسمه العزيز جارياً على كل لسان، والله موفقه لما يرفع الذكر الجميل ويكسب الثواب الجزيل إنه خير موفق ومعين".

الزمخشري وكتاب ديوان الأدب:

- تعريف بالكتاب:

للزمخشري ديوان ضخم جمعه بنفسه ورتبه على تسلسل الحروف الهجائية وذلك بطلب من أبي الحسن علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس وأهداه إليه، قال^(١):

"... للقيت مني حين اقترحت عليّ جمع نفاثات قريحتي، وطلبت إليّ الأسجاع بمحاجة سجيّتي ... وما هي إلا أقدامة منهوك، واقتحامة متفتك، واغترار باستجادتك، واستنامة إلى استعادتك، وركوب إلى قولك في كثير منها هو بكلام القدمات أشبه من الماء بالماء، قضاؤك للبنوات باصابة المخر، واقبالك على المكبات بالمنكب المهتز، والحاكك العربيّة بحولي العرب المنقح، وتشبيهك أبياتها بالعراب القرع، وشهادتك الحكيمة بما أمال من عطفها، ونفخ في قحفها، واعجابك

(١) مقدمة ديوان الأدب.

بأخوات لهن من مقصرات ومقطعات، ولعلك السبب فيما أريد بها من التشهير،
وأتيح لها التيسير، والله المستعان".

وقد افتخر الزمخشري وتباهى بشعره قائلاً^(١):

أقرت بي الآداب أصلاً لها ومن رأى مشرفيات جحدن مشارفا
ديوان منظومي يريك بدائعا وديوان منثوري يريك مطارفا

وقال أيضاً: ^(٢)

ومما شجاني أن غرّ مناقبي وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي
ويغني بها الركبان بين القوافل وسارت مسير النيرات رسائلي

الزمخشري والشعبوية في ديوان الأدب:

قال باكياً الأطلال^(٣):

أيا عرصات الحي أين الأوانس رحلن وحلتك الظباء الكوانس
أعامرة بالأمس تهتز نظرة مغانيك وهو اليوم قفر بسابس
بليت بشيء لم أك قبلي به فرسمك منه مثل رسمي دارس*
جفتك وكانت من مهى الأونس رربا نواشئ في برد الشباب موائس
مهى لفتاة المسك في كل ملعب بتجريب أذيال المراط كوانس

(١) ديوان الأدب ورقة ٧٠ مطلع القصيدة:

سقى الله بطن الايك اوطف واكفا يجلل بطن الأيك أزرق دارفا.

(٢) المصدر السابق ورقة ٩٢، والبيتان من قصيدة مطلعها:

خليلي هل تجدي علي فضائلي إذا أنا لم أرفع على كل جاهل

(٣) ديوان الأدب ورقة ٦٠.

(* وردت بعض الأبيات في هذا البحث مختلة الوزن، وبعض الكلمات غير واضحة المعاني، ولعل ذلك أن يكون في الأصل.

فعودت من تلك الكوانس غيرها
وما اركس القلب المعذب بعدما
محلان للحي الجميع كلاهما
توالى بكاء فيهما وتنفسا
ليذلهم ما هبت الشمال القرى
لعهدي بهم والدهر مفض جنونه
كوانس ما دالت لهن ملابس
سلا سلوة إلا العذيب وراكس
محيق كما يمحو الصفيحة طامس
رواحس يخضلن الريى وروامس
وسقيهم الصهباء والماء قارس
وصرف النوى عن صدعة الشمس آيس

ثم ينتقل الى مدح العرب والفخر بهم:

تنافسهم في الغر كل قبيلة
إذا جلسوا حول الرياض بهيجة
عن العرب الصيد الأولى أحرزوا العلى
غطارفة شم تربوا أعزة
وللعرب العرباء أصلب منبت
فيا لغة لو يشعر الصخر بالذي
إباء إباء الخيل وهي شوامس
وما نال منهم في الهزاهز كلها
مساعر ما يحمي الوطيس بمثلهم
فكم طعنة بكر يطير رشاشها
ويكفيك من أيامهم وحروبهم
وأبى عليهم عزهم أن ينافسوا
فأبهج من تلك الرياض المجالس
وطابت لهم أعراقهم والمغارس
فما شم ريح الذل منهم معاطس
وهل يستطيع الحز في النبع ضارس
تمارس ضج الصخر مما تمارس
وصبر كصبر الخيل وهي هوامس
فوارس هيجا أم ليوث فوارس
إذا فرّ عن حرّ القراع المغامس
لفتيانهم والحرب شمطاء عانس
بما جرت الغبراء أو جرّ داحس

ثم يذكر انتصارات العرب على فارس وسلب تيجان الملوك:

وهم فرسوا أبناء فارس كلهم
ومصلتة ما زال يطلّى بياضها
وهم سلبوا التيجان هام ملوكهم
بأنيابهم وهي الرماح المذاعس
بماء الطلى ما فارقتها المداوس
ولم يقطعوا عنهم وفارس فارس

وأبي سخاء يدعى كسائهم
بأسيافهم يمرون سوق عشارهم
وإن تستعد منهم بأعظم ميت
إذا اعتقلت كفاك فيهم بذمة
وأعراضهم أعراقهم وكلت بها
وعن صهر كسرى صد نعمان باوه
وهان عليه يومه قبل ساعة
بما ملكوا والجو أغبر عابس
إذا نزل الأضياف والضرع يابس
فذلك حصن مانع لك حارس
فخصمك فل ناكص عنك ناكس
مهينة حتى اتقتها المدانس
فخنقه في خانقين الفوارس
يكابد فيها صهر من لا يجانس

ثم يوضح روعة اللغة العربية وانتشارها في الأمصار، وأن الرسول عربي
والقرآن نزل باللغة العربية:

وقل هل فشا في الأرض غير لسانهم
به عجّ في أمصارها كل منير
على ظهرها لم يخلق الله أمة
يقايس بين الناس حتى إذا انتهى
وواحدة تكفيك هاتيك حجة
أجل رسولٍ منهم وبلسانهم
وقل للشعوبيين إن حديثكم
لكم مذهب فسل يغر بمثله
لسان فُشِرَ الضوء واليوم شامس
وطنت به في الخافقين المدارس
تناسبهم في خصلة أو تلابس
إلى العرب القياس طاح المقاييس
بساطعها تنشق عنك الحنادس
أجل كتاب فاعتبر يا منافس
أضاليل من شيطانكم ووساوس
أشاييب حمقى لا الرجال الأكاييس

قال من قصيدة أخرى مادحاً الرسول الأعظم ومشيداً بصفاته الغر حيث
جاء بالحنفية البيضاء ومعجزته كتاب الله فتابعه سعيد ومن زاغ عنه فهو الهالك.
وقد استطاع الرسول (ص) أن يطوح تاج كسرى وقيصر والممالك الأخرى،

فقال^(١):

ادار الأولى حلوك أين أولتك
وما أحد صلي عليه محمد
أبو القاسم ابن الأنبياء محمد
فأسعد أهل الأرض تابع خطوه
إلى الثقلين المصطفى كان مرسلأ
ولما أتاهم بالحنيفية التي
بملة إبراهيم أثبت مله
أتاهم بآيات الكتاب فأصبحت
يداهم بأشباه السيوف بوابكا
ببيض خطن الغر عن كل حاطم
وطوحن قصراً تاج كسرى وقيصر
وكم من دماء حيل من دون حتفها
وذو العرش ألقى في قلوب غواتهم
فكائن رأوا من ذي ممالك ككببت
وشردنهم في كل أوب تواركا

ثم قال مفتخراً بنسب الرسول بأنه ينتمي إلى قريش ذات المنصب العزيز
وأنه من عدنان، ومدح الصحابة التي التقت حول الرسول ودافعت عنه دفاع
الأبطال:

أعز قريش منصبا وأخصهم
أبوته أعلته ثم ارتقت به
بفرع سنام بين عدنان تافك
نبوته في الباذخات السوامك

(١) ديوان الأدب ورقة ٩٠.

وذلك يجزيه من أن يعتري إلى
وما كان إلا البدر تحتفي حوله
هم كشفوا عن وجهه كرب الورى
وقاموا بضرب للطلّى متتابع
إلى أن دجى الإسلام وامتد ظله
فارسلت الأديان سحاً عيونها
إليك رسول الله جهّرت مدحتي
فواطم من جداته وعواتك
صحابة صدق كالنجوم الشوابك
كفاحاً وخاضوا دونه في المعارك
وزادوا بطعن في الكلى متدارك
وعضّ على أبهامه كل آفك
وأوضح دين الحق أنياب ضاحك
وإنك أسخى كل باق وهالك



الزمخشري وكتاب الكلم النوايغ:

هي مجموعة حكم ونصائح مركزة موجزة مسجوعة سجعاً ملتزماً لا
ينتظمها موضوع أو فكرة وإنما في شتى مجالات الحياة في الأخلاق
والسياسة والاقتصاد والدين والاجتماع، طبع الكتاب المستشرق الهولندي
هنري البرت سجلتن "Henricus Albertus Sehultens" في سنة ١٧٧٢م مع
ترجمة إلى اللاتينية بعنوان "Anthologia Sententiarum Arabicarum" وفي سنة
١٨٧٥م طبع الكتاب المستشرق الفرنسي "C. Barbier de Meynard" مع
ترجمة إلى الفرنسية ونشرها في مجلة "Journal Asiatique" بعنوان: "Les
Pensées De Zamakhschari".

وفي سنة ١٣٠٦هـ طبع الكتاب محمد الكستي البيروتي في بيروت.
وفي سنة ١٩٧١م حققت الكتاب ونشرته الدكتورة بهيجة باقر الحسني في

مجلة العرب في الجزء التاسع والعاشر . قال فيه السيد حبيب الدارجي التونسي^(١):
روض البلاغة قد تفتح زهره وجرى بتسنيم الفصاحة نهره
أو ما ترى "الكلم النوابغ" قد بدت تزرى بعقد لا يثمن قدره
من نسج جار الله أستاذ الوري المعتلى بين البرية قدره
يا زمرة الأدباء بشراكم بما قد هم طلاب المعارف نشره

وللكتاب شروح كثيرة أشهرها شرح العلامة سعد الدين التفتازاني وسماه
بـ"النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ".

طبع في وادي النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٦ هجرية.

قال فيه الزمخشري معظماً العرب ومفضلاً إياهم على العجم:^(٢)
"العرب نبع صلب المعاجم والغرب مثل الأعاجم"

فسرّها التفتازاني^(٣):

"أن العرب فصحاء أعزاء أقوياء دون الأعاجم".

وقال الزمخشري أيضاً شامخاً بالعرب^(٤):

"فرقك بين الرطب والعجم هو الفرق بين العرب والعجم"

وقال مادحاً الإسلام^(٥):

(١) الأبيات في الصفحة الأخيرة من كتاب "الكلم النوابغ" طبعة بيروت.

(٢) الكلم النوابغ: رقم ٢٨.

(٣) النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ صفحة ١٥.

(٤) الكلم النوابغ: رقم ٢٢٠.

(٥) المصدر نفسه رقم ١٤٢.

"الدخول في دارة الإسلام خلود في دار السلام"

وقال^(١):

"آمن بالأمين "ابن آمنة" تأت يوم الفزع بنفس آمنة"

وهكذا تصدى الزمخشري للشعبوية في مؤلفاته هذه فمدح الإسلام والرسول
العربي والعرب، وذم الفرس والشعوبين.

(١) المصدر نفسه رقم ١٥٦.

المصادر والمراجع

- ١- الأعلام - للزركلي. الطبعة الثالثة بـ"الأوفست" بيروت سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩١٠م.
- ٢- الأخبار الطوال - الدينوري، تحقيق: عبدالمنعم عامر، مطبعة عيسى بابي الحلبي، القاهرة سنة ١٩٦٠م.
- ٣- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب - المعروف بمعجم الأدباء، تحقيق: مرجليوث القاهرة ١٩٢٣-١٩٣١.
- ٤- أزهار الرياض في أخبار عياض - المقري ١٣٥٨هـ-١٣٦١هجرية.
- ٥- إنباه الرواة على أنباه النحاة- القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٤/١٩٥٥.
- ٦- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون - إسماعيل باشا البغدادي، طهران سنة ١٩٦٧.
- ٧- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- القاهرة ١٩٦٤، مطبعة أولى سنة ١٣٢٦ هجرية.
- ٨- البيان والتبيين - للجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون ١٣٦٧/١٩٤٨.
- ٩- تاريخ بغداد- للخطيب البغدادي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٣١م.
- ١٠- تلبيس إبليس أو نقد العلم والعلماء - الطبعة المنيرية، القاهرة ١٣٤٧ هجرية.
- ١١- تذكرة الحفاظ - للذهبي، طبع في حيدر آباد - الدكن ١٣٣٣-١٣٣٤هـ.

- ١٢- الجذور التاريخية للشعبوية - للدكتور عبدالعزيز الدوري، منشورات دار الطليعة بيروت ١٩٦٢م.
- ١٣- جريدة العراق - الأحد، ١٨ كانون الثاني ١٩٨٧.
- ١٤- ديوان الأدب - للزمخشري، مخطوط مصور في المجمع العلمي العراقي.
- ١٥- ديوان بشار بن برد - شرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور.
- ١٦- ديوان أبي نواس - تحقق أحمد عبدالحמיד الغزالي، القاهرة ١٩٥٣.
- ١٧- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات - محمد باقر الخوانساري.
- ١٨- الشعبوية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية - للدكتور عبدالله سلوم، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية ١٩٨٠.
- ١٩- الشعبوية - الدجيلي - الطبعة الثانية النجف ١٩٦٠.
- ٢٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - لأبي الفداء، طبعة القاهرة ١٣٥٠ هجرية.
- ٢١- الشعر والشعراء - لابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٤.
- ٢٢- الصراع بين العرب والموالي - لبديع شريف، دار الكاتب العربي، القاهرة سنة ١٩٥٤.
- ٢٣- ضحى الإسلام - لأحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٧٥هـ.
- ٢٤- طبقات المفسرين - للسيوطي، تحقيق: فشر، طبع في ليدن ١٨٣٩.
- ٢٥- العقد الفريد، لابن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين، القاهرة ١٩٤٠.

- ٢٦- الفائق في غريب الحديث - لجار الله الزمخشري، طبع في حيدر آباد-
الدكن سنة ١٣٢٤هـ، وطبع في القاهرة سنة ١٣٦٦ / ١٩٤٧.
- ٢٧- الفهرست - لابن النديم، مطبعة الاستقامة، القاهرة بدون تاريخ.
- ٢٨- الفرج بعد الشدة - للتوحي.
- ٢٩- القصيدة البعوضية - للدكتورة بهيجة الحسني، مجلة الأستاذ ١٩٦٧.
- ٣٠- الكامل في التاريخ - لابن الأثير. طبع في مصر سنة ١٣٠٣هـ.
- ٣١- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - حاجي خليفة، طهران سنة ١٩٦٧.
- ٣٢- اللباب في تهذيب الأنساب - لابن الأثير، طبع في مصر ١٣٥٦-١٣٦٩.
- ٣٣- مجلة العرب - المملكة العربية السعودية، الرياض لسنة ١٩٧١.
- ٣٤- المحاجاة بالمسائل النحوية - للزمخشري، تحقيق الدكتورة بهيجة باقر
الحسني مطبعة أسعد بيغداد سنة ١٣٩٣ / ١٩٧٣.
- ٣٥- معجم البلدان - لياقوت الحموي، طبعة أولى ١٣٢٣ / ١٩٠٦.
- ٣٦- مفتاح السعادة ومصباح السيادة - لطاش كبرى زادة- طبع في حيدر آباد -
الدكن سنة ١٣٢٩هـ.
- ٣٧- مقدمة الأدب - للزمخشري، تحقيق سيد محمد كاظم إمام، طهران سنة
١٩٦٣م.
- ٣٨- المفصل - للزمخشري وبهامشه "الفصل بشرح المفصل" طبع بمطبعة
الحجازي بالقاهرة.
- ٣٩- الملل والنحل - للشهرستاني، المطبعة الأدبية، القاهرة ١٣٢٠.
- ٤٠- نزهة الألباء في طبقات الأدباء - لابن الأنباري، تحقيق: الدكتور إبراهيم
السامرائي، الطبقة الثانية ١٩٧٠.

- ٤١- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - لإسماعيل باشا
البغدادي، طبع بإستانبول ١٩٥٠-١٩٥١.
- ٤٢- وفيات الأعيان - لابن خلكان، تحقيق: محيي الدين عبدالحמיד، مطبعة
السعادة، القاهرة ١٣٦٧/١٩٤٨.

* * * * *